التهديدات الأمريكية المتوالية لعالم المسلمين
وفلسفة انتظار الدور: إيران نموذجًا

مقدمة:

يبدو أن العالم قد انقسم فعلاً إلى فسطاطين؛ فسطاط "الهيمنة والاستكبار"؛ وتمثله الولايات المتحدة، وفسطاط "المقاومة"؛ ويمثله عالم المسلمين. ورغم أننا لا نستطيع أن نختزل تلك التباينات الجمة التي تمثل ذلك العالم على امتداد رقعته وترامي أطرافه وتباين مصالح دوله, إلا أن القاسم المشترك الذي يجمع ذلك العالم الذي يشكل محور طنجة/جاكرتا هو: **"الاستهداف"**، ووقوعه في مرمى النيران الأمريكية؛ وهي ليست نيرانًا صديقة على الإطلاق، بل نيران متربصة تريد الهيمنة؛ وليس مجرد الهيمنة الاقتصادية بالسيطرة على الموارد، أو الهيمنة السياسية بالتحكم بمقدرات الدول التي تشكّل عالم المسلمين وتوجه دفة الأمور بها؛ بل تريد هيمنة أشد مما سبق؛ تريد الهيمنة الحضارية بفرض "النمط الأمريكي" في الحياة، بكل تداعياته الثقافية والأخلاقية والسلوكية. ولعل ذلك ما يتضح في منظومة المعاهدات والاتفاقيات الخاصة بالمرأة والمجال الاجتماعي؛ والتي تصدر عن الأمم المتحدة.

ربما كان **المدخل الثقافي** أقرب المداخل التحليلية لفهم جوهر العلاقة الحاكمة بين عالم المسلمين -بما يحوي من دول ونظم وكيانات وشعوب- وعالم الولايات المتحدة بما يملك من قدرة على التأثير، وفرض مقتضيات أجندة لا تبدو فيها سوى مصالح الرأسمالية المتوحشة التي تريد صياغة المنظومة القيمية لشعوب العالم؛ وليس فقط عالم المسلمين.

إن أهم ما في هاتين القوتين (عالم المسلمين، وعالم الولايات المتحدة) هو أنهما؛ يملكان منهجًا في الحياة، قابلاً للاستمرار. **القوة الأولى (وهي عالم المسلمين)** تملك من التاريخ والأمل في المستقبل أكثر مما تملك من واقع، **أما القوة الثانية (وهي عالم الولايات المتحدة)**؛ فتملك من أسباب القوة والتمكين لأفكارها ومنهجها في الحياة ما يجعل الوقوف في وجهها ضربًا من ضروب المستحيل، أو نوعًا من مناطحة السحاب.

ويمكن القول إن الصراع (بالمعنى الغربي) أو التدافع (بالمعنى الإسلامي) بين هذين النموذجين في الحياة؛ هو الذي سيشكل مستقبل العالم -على الأقل القرن الحالي- وهو صراع لا تحكمه موازين القوى العادية التي تحكم العلاقات بين القوى السياسية والاقتصادية في العالم؛ بل يحكم هذا الصراع ميزان قوى من نوع خاص؛ تمثل القيم الثقافية -بما تحمل من "منهج في الحياة" وقدرة على الاستمرار- أهم قيمه على الإطلاق.

وعلى مدار عقود طويلة -منذ أن بدأت الولايات المتحدة تتمدد خارج حدودها- والجغرافيا التي تشكل عالم المسلمين (أي محور طنجة/جاكرتا) عُرضة للاستهداف. وصحيح أنه كانت هناك فترة من الزمن حالفت فيها الولايات المتحدة أغلب دول عالم المسلمين؛ وذلك حتى تتفرغ للعالم الشيوعي، وبمساعدة عالم المسلمين للولايات المتحدة سقط العالم الشيوعي بما كان يطرحه من نموذج متحدٍّ للعالم الأمريكي (سواء على مستوى الأفكار، أو على مستوى التطبيق والتقدم المادي) وبقي عالم المسلمين بما يقدم من تحد -فقط- على مستوى الأفكار. لكن النموذج الأمريكي الذي قام على التفرد؛ لا يقبل منافسين، ولو على مستوى الأفكار.

وانتهت فترة الحرب الباردة، ووقع عالم المسلمين في مرمى النيران الأمريكية، وأصبحت دوله عرضة للاحتلال المباشر وغير المباشر عسكريًا وسياسيًا، واقتصاديًا وثقافيًا وأمنيًا؛ بالرغم من الاعتقاد الذي كان سائدًا بأن عالم المسلمين قد ودع -وإلى الأبد- الحركة الاستعمارية التوسعية الغربية التي أرخت بظلالها عليه في القرن الماضي، والتي كانت سببًا رئيسيًا في تراجع مشروع النهضة الإسلامي، كما كانت السبب في إنتاج نخب علمانية أتاحت للفكر الاستعماري في

كل أبعاده السياسية والثقافية والاقتصادية أن يستمر محركًا لتفاصيل الدولة الحديثة المستقلة اسمًا وشكلاً.

وما أقسى واقع عالم المسلمين الآن:

فعلى صعيد الاحتلال العسكري؛ فإن هناك ثلاث دول إسلامية محتلة احتلالاً مباشرًا من قبل الولايات المتحدة الأمريكية والدولة الصهيونية؛ وهذه الدول هي فلسطين وأفغانستان والعراق، وهناك دول إسلامية تفتّتت بسبب الولايات المتحدة الأمريكية ومساعيها؛ وهي إندونيسيا – والتي استقلت عنها "تيمور الشرقية"– والصومال.

وعلى الصعيد الاقتصادي؛ فما زالت الشركات متعددة الجنسيات –الأمريكية في مجملها– وصندوق النقد الدولي يتحكمان في اقتصاديات عالم المسلمين، وقد أصبحت المساعدة الاقتصادية للعالم الإسلامي مقرونة بالرضوخ السياسي، والاستجابة الكاملة لقرارات ومخططات المانحين.

وعلى الصعيد الثقافي؛ فإن الإدارة الأمريكية وضعت مخططًا كاملاً واستراتيجية متعددة الأبعاد لإعادة تأهيل العالم الإسلامي ثقافيًا وتربويًا وعلميًا، وكل دولة إسلامية تحاول الانطلاق من مقوماتها الذاتية وتعمل على استكناه أسرار التقنية –وتحديدًا تكنولوجيا السلاح– فإنها تدرج في خانة الدول المتمردة؛ وبالتالي هناك كم هائل من القوانين لمعاقبتها.

ومثلما كان العالم الإسلامي في بداية القرن الماضي عرضة للاستعمار والاحتلال؛ فإنه دشن بداية قرنه الحالي باحتلال أمريكا لدولة مفصلية –استراتيجيًا وجيوسياسيًا – في الجغرافيا الإسلامية[1].

لاشك أن العالم الإسلامي يعيش الآن مرحلة "إعادة رسم الخرائط للجغرافيا، وإعادة التأهيل الثقافي والفكري لشعوب عالم المسلمين"؛ وهي مرحلة تبدو معها مرحلة سايكس/بيكو أخف ضررًا.

أولاً– تاريخ التهديدات الأمريكية للعالم

مع نهاية الحرب العالمية الثانية، وبزوغ نجم الولايات المتحدة الأمريكية كقوة عظمى؛ بدأت السياسة الأمريكية تتسم بالغطرسة ومحاولة الهيمنة على العالم بأسره؛ حتى لو أدى ذلك إلى إسقاط كل الأبجديات الأخلاقية المتعارف عليها، أو أدى إلى خرق كل القوانين والمواثيق الدولية؛ فالمهم في النهاية هو تحقيق المصالح والاستراتيجية الأمريكية.

ولعل من أهم العوامل التي أدت إلى أن تتصرف الولايات المتحدة مثل تلك التصرفات التي تعود بالعالم إلى ما قبل نشأة النظام القانوني الدولي –حيث سيادة مفاهيم الإمبراطوريات ونمط سلوكياتها في التعامل بين الدول– هو الطريقة التي نشأت بها الولايات المتحدة ذاتها؛ حيث نشأت أمريكا كموطن ولم تنشأ كوطن، وبدأت كملجأ ولم تبدأ كدولة؛ لديها كثير من الجغرافيا وقليل من التاريخ، كثير من المعرفة وقليل من الحكمة، الحق عندها هو القوة، والبرجماتية هي الأيديولوجيا الرسمية للدولة وهي فلسفة التعليم والإعلام؛ بل فلسفة الحياة ذاتها.

وربما كان ذلك سردًا مبسطًا لسلوكيات الولايات المتحدة ضد دول العالم؛ وهو يثبت أن تلك الدولة (أمريكا) ليست خطرًا على العالم الإسلامي وحده؛ بل هي خطر على العالم كله بما فيه الشعب الأمريكي ذاته. **ولنراجع تاريخ التدخلات الأمريكية في العالم بدءًا من الحرب العالمية الثانية:**

- بدأت أولى حلقات التدخل الأمريكي بالحرب على اليابان عام ١٩٣٩؛ حيث دمرت مئات المدن اليابانية، ثم أنهت الحرب بإلقاء قنبلتين ذريتين على هيروشيما وناجازاكي، حتى بعد أن استسلمت اليابان رسميًا.
- ثم كانت كوريا هي المحطة الثانية، ومثَّل العدوان الأمريكي عليها فصلاً آخر من فصول توحش تلك القوة في العالم، ويكفي في هذا السياق أن نشير إلى وصف المفكر الأمريكي ناعوم تشومسكي للمجازر التي تمت على أيدي القوات الأمريكية في كوريا، والعديد من دول

أمريكا الجنوبية؛ حيث يقول: "**... عندما دخلت قواتنا كوريا عام ١٩٤٥ عزلنا حكومة ذات شعبية معادية للفاشية، وقاومنا الاحتلال الياباني، وأشعلنا حربًا ضروسًا سقط خلالها مائة ألف قتيل.. وفي إقليم واحد صغير سقط ٣٠,٠٠٠-٤٠,٠٠٠ قتيل في أثناء ثورة الفلاحين**".

- ولم يخلُ السجل الأمريكي الحافل من التدخل في شئون الدول قاطبة؛ حيث عمدت السياسة الأمريكية -كما يقول تشومسكي- إلى "**إعاقة الحكومات البرلمانية**"، بل وأسقطتها في إيران عام ١٩٥٣، وفي جواتيمالا عام ١٩٥٤، وفي شيلي عام ١٩٧٢.

- وبين عامي ١٩٥٢ و١٩٧٣ ذبحت الولايات المتحدة زهاء عشرة ملايين صيني وكوري وفيتنامي ولاووسي وكمبودي، وفي فيتنام مثلاً يؤكد الراهب البوذي الفيتنامي ثيتش ثين هاو أن "**حرب فيتنام تسببت -بحلول منتصف عام ١٩٦٣- في مقتل ١٦٠ ألف شخص، وتعذيب وتشويه ٧٠٠ ألف شخص، واغتصاب ٣١ ألف امرأة، كما نزعت أحشاء ٣٠٠٠ شخص وهم أحياء، وأحرق ٤٠٠٠ حتى الموت، ودمر ألف معبد، وهوجمت ٤٦ قرية بالمواد الكيماوية السامة**".

- كما أدى القصف الأمريكي لهانوي وهايفونج عام ١٩٧٢ إلى إصابة أكثر من ٣٠ ألف طفل بالصمم الدائم.. وبينما عانى الأمريكيون بعد الحرب من فقد ٢,٤٩٧ جنديًا (بحسب أحد التقديرات)؛ كانت العائلات الفيتنامية تكافح للتكيف مع فقد ٣٠٠ ألف فيتنامي، فضلاً عن أن عدد القتلى في فيتنام بلغ أربعة ملايين شخص، إلى جانب عدة ملايين آخرين من المعوقين والمصابين بالعمى والصدمات والتشوه؛ مما حول فيتنام إلى ساحة كبرى للقبور ومبتوري الأعضاء، والأرض المسممة، واليتامى، والأطفال المشوهين.

- ويمتد السجل الأسود ليشمل التواطؤ الأمريكي الواضح في المجازر الإندونيسية، والحروب ضد الفقراء في أمريكا الوسطى (نيكاراغوا، والسلفادور، وغواتيمالا، وهندوراس)؛ والذي أسفر عن مقتل مئات الآلاف بواسطة الأسلحة الأمريكية، وتسهيل وتوفير التدريب، وتقديم المشورة الأمريكية في الاضطرابات المدنية؛ وهو نفس السيناريو الذي كررته السياسة الأمريكية الرعناء في إفريقيا؛ حين سعت إلى تأجيج واستمرار الصراع الدامي في أنجولا وموزمبيق وناميبيا، وغيرها من دول القارة السمراء[٢].

- وفي عام ١٩٨٣ مُنيت الغطرسة الأمريكية بفضيحة أخرى؛ حين غزا الجيش الأمريكي بمساعدة القوات الخاصة جزيرة "جرينادا" لمعاقبة نظامها على اقترابه من نظام كوبا الشيوعي.

- وفي عام ١٩٩٠ ارتكبت القوات الخاصة الأمريكية مجزرة بشعة في بنما، راح ضحيتها ما بين٥٠٠ و١٠٠٠ قتيل؛ لكي تتمكن من القبض على شخص واحد بتهمة "الاتجار في المخدرات"؛ وهو الرئيس نورييجا نفسه.

وغير بعيد تلك التهديدات المتتالية والمتوالية والمستمرة منذ فترة طويلة لكوريا الشمالية، ومحاولة إفشال برنامجها النووي، وحصارها وتحجيمها، ووضعها على قائمة محور الشر.

ثانيًا- التهديدات الأمريكية المتوالية لعالم المسلمين

قديمة هي التهديدات الأمريكية لعالم المسلمين، ويمكننا العودة إلى تاريخ ١٩٥٣؛ حيث تدخلت الولايات المتحدة لتسقط حكومة مصدَّق.

وسادت فترة من الصراع بين العالمين الشيوعي والأمريكي، حتى انتهى الصراع بانتهاء الحرب الباردة، وبدأت الولايات المتحدة تفكر في إيجاد بديل؛ فالنموذج الأمريكي لا بد له من عدو يستنهض همته ويشذ فاعليته؛ وكان الإسلام وعالم المسلمين هو العدو البديل، وأصبحت

دعوات النهوض والاستقلال الحضاري في عالم المسلمين هي التي تشكل أكبر تهديد للمصالح الأمريكية في تصور العالم الأمريكي.

ويمكن رصد سلسلة التهديدات الأمريكية لعالم المسلمين فيما يلي:

- كانت إيران الحلقة الأولى في سلسلة الاستهداف الأمريكي منذ قيام الثورة عام ١٩٧٩؛ فالشاه كان الحليف الاستراتيجي لأمريكا، وحامي مصالحها في المنطقة، وعندما ثار الشعب الإيراني عليه كانت ثورته أيضًا على من يدعمه. ومن هنا بدأت نقطة العداء المتواصل بين الولايات المتحدة وإيران/الثورة؛ حيث تم الاستيلاء على السفارة الأمريكية في طهران، واحتجاز الأمريكان فيها كرهائن؛ فحاولت الولايات المتحدة التدخل وفك سراح الرهائن بالقوة لكنها فشلت، ولا يزال احتجاز الرهائن يشكل -على حد كبير- الوعي الشعبي الأمريكي تجاه عالم المسلمين.

- وكانت لبنان الحلقة الثانية؛ حيث قامت الولايات المتحدة بغزو لبنان عام ١٩٨٢؛ بهدف سحق المقاومة الفلسطينية واللبنانية المتصاعدة آنذاك، وتم نشر قوات المارينز حول مطار بيروت، ولم تخرج الولايات المتحدة من لبنان إلا بعد عمليات استهداف قوات المارينز الأمريكان.

- وكانت ليبيا الحلقة الثالثة بعد أن رفع القذافي راية التحدي للهيمنة الأمريكية في المنطقة لسنوات طويلة؛ ومن ثم لم يكن غريبًا أن تقرر الولايات المتحدة بدءًا من عام ١٩٨٠ التخلص نهائيًا من القذافي؛ ففي صيف ١٩٨٠وضعت أمريكا خطة لضرب طائرة القذافي في رحلته لأوروبا الشرقية، إلا أن الطائرات الأمريكية أسقطت طائرة إيطالية فوق مياه أوستيكا متوهمة أنها طائرة القذافي, وفي ١٩ أغسطس ١٩٨١ قامت ثماني طائرات أمريكية باعتراض طائرتين من طائرات السلاح الجوي الليبي كانتا تقومان باستطلاع في المياه الليبية وأسقطتهما. بيد أن الاستكبار الأمريكي بلغ مداه في ١٠ أبريل ١٩٨٦ بالغارة على مدينتي طرابلس وبنغازي وبيت القذافي في محاولة لإسقاط النظام الليبي.

- وكانت الصومال هي الحلقة الرابعة؛ ففي عام ١٩٩٣ دخلت القوات الأمريكية الصومال، لكنها كانت على موعد آخر مع الفشل الذريع هناك، ولم تخرج الولايات المتحدة من الصومال إلا بعد أن شاهد العالم كله شعب المجاعة يسحل القوات الغازية على شاشات التليفزيون.

- وكانت السودان هي الحلقة الخامسة؛ حيث لم تسلم السودان من التحرشات الأمريكية، عندما أغارت الطائرات الأمريكية على مصنع للأدوية بالسودان عام ١٩٩٨[٣].

- وكانت قمة استهداف عالم المسلمين في العراق؛ حيث تمثل عمليات حصار العراق نموذجًا لعمليات إبادة جماعية تنظمها واشنطن ضد العراق، منذ انتهاء الحرب التي أطلق عليها إعلاميًا حرب تحرير الكويت ١٩٩١. وهذه العمليات تمثل جزءًا أصيلاً من السياسات الأمريكية الممتدة على مدار القرن.

- ثم تأتي ذروة استهداف عالم المسلمين، وقمة كوارث عالمهم؛ وهي احتلال عاصمة الخلافة الإسلامية بغداد من قبل قوات الاحتلال الأمريكية؛ مما استدعى إلى الذاكرة الإسلامية سحق بغداد تحت سنابك خيل التتار، وربما كان تتار البارحة أكثر رحمة من تتار اليوم.

لقد كانت قارعة سبتمبر ذروة تصعيد حملة الولايات المتحدة على العالم الإسلامي، وتمثلت جملة مطالب الولايات المتحدة من بلدان العالم الإسلامي في:

أولاً- تغيير المناهج والعقائد والأفكار الدينية التي تغذي حالة العداء للولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، وقد باشرت أغلب دول العالم الإسلامي جملة من التغيرات؛ علها تفي بمطالب تلك القوة الجبارة،

تحت مسميات شتى؛ منها إصلاح الخطاب الديني، أو تطوير مناهج التعليم.

ثانيًا– قطع المساعدات والهبات التي تقدمها بلدان العالم الإسلامي –خاصة بلدان الوفرة– إلى الجمعيات الخيرية والمعاهد والمؤسسات التربوية، لا سيما في فلسطين المحتلة، كما في غيرها من أقطار العالم الإسلامي؛ وهي السياسة التي أطلق عليها **"تجفيف المنابع"**[٤].

ثالثاً– الحؤول دون توظيف النصوص الدينية في الكتاب والسُّنة في معاداة الصهيونية والأطماع الأمريكية؛ فلا يكون هناك حديث عن الجهاد، ولا تحرير الأوطان، ولا حتى خطاب السيادة التقليدي، ولا استقلال الهوية الحضارية لشعوب عالم المسلمين.

رابعًا– إدخال جملة من الإصلاحات الديمقراطية على النظم السياسية لبلدان العالم الإسلامي؛ وهي إصلاحات لا يقصد بها تقوية المناعة الذاتية لتلك البلدان، بقدر ما يقصد منها إضعاف تلك المناعة, وتهيئة المناخ للتدخلات الأمريكية.

وإذا كانت هذه المطالب هي على العموم لبلاد العالم الإسلامي؛ فإن هناك جملة مطالب من كل دولة على حدة.

خامسًا– دول الخليج: لعل ما هو مطلوب من السعودية تحديدًا، ومن دول الخليج العربي عمومًا من أصعب الأمور عليها؛ إذ إن بعضها أمور تتعلق بأصل الشرعية الدينية التي قامت عليها الدولة السعودية، وبعضها يتعلق بمستوى التطور الذي بلغه الشعب السعودي (تتلخص جملة المطالب من السعودية في تغيير خطابها الديني، وتغيير التعليم الديني بحجة أنه هو الذي يفرخ الإرهاب، وإحداث إصلاحات سياسية)؛ وهي أمور تهدد استقرار الدولة ذاتها؛ وهو ما يجعل المملكة السعودية تبدي قدرًا أكبر من الممانعة في مواجهة الولايات المتحدة.

سادسًا– إيران: ترغب الولايات المتحدة في تغيير نظام الثورة الإسلامية في إيران، ولا تنفك تعلن عن دعمها لأي ثمرة أو محاولة للخروج من تحت سلطة الدولة الإسلامية. كما تثير قضية السلاح النووي الإيراني، واحتمال توصل إيران إلى إنتاج قنبلة نووية خاصة بها. ولعل أهم نقاط الضغط على إيران تتمثل في: الضغط عليها في الملف النووي، وقف دعمها لحزب اللّه في لبنان، وللانتفاضة في فلسطين.

سابعًا– العراق: إن من أهم المطلوب أمريكيًا من العراق، –وهي تقوم بعمله بالفعل– هو إعادة صياغتها صياغة جديدة، يكون بها العراق حجرًا في جدار المصالح الأمريكية في المنطقة.

وحيث إنه لا توجد سلطة عراقية وطنية؛ فإن ما تريده أمريكا من العراق هو بسط السيطرة عليه لمدة طويلة من الزمن، ولا سبيل إلى ذلك مع وحدة الشعب العراقي واتفاقه؛ لذلك فالمطلوب عدم الوحدة وعدم المقاومة، وعدم التعاون. وللوصول إلى ذلك ستعمل الإدارة الأمريكية على إذكاء روح التنازع والاختلاف بين العراقيين –شيعة وسُنة وعربًا وأكرادًا وتركمانًا– وصولاً إلى الاقتتال الذي قد يؤدي إلى تقسيم العراق[٥].

ويمكن القول إنه بعد انتهاء الحرب الباردة، واستفراد الولايات المتحدة بقيادة العالم، ثم قارعة سبتمبر وما خلَّفها من تقسيم الولايات المتحدة للعالم إلى قسمين (إما مع الولايات المتحدة بلا قيد أو شرط، وإما مع الإرهاب)، ووضع العالم الإسلامي في مرمى النيران الأمريكية، وإعلان الولايات المتحدة رغبتها في إعادة رسم خرائط محور طنجة/جاكرتا، وإعادة تأهيله ثقافيًا حتى يندرج في منظمة ما سمي بالعولمة (إما رغبة أو رهبة)؛ نجد أن منظومة القوة التي تسيطر على القرار الاستراتيجي في الولايات المتحدة قد انتقلت بها من استراتيجية الردع إلى استراتيجية القسر، وهذه الاستراتيجية (القسر) يندمج منتوجها الدعائي في استخدامها فعليًا، لا في التلويح بهذا الاستخدام؛ ذلك أنه إذا كانت فعالية استراتيجية الردع تتوقف على توافر ثلاثة شروط؛ هي:

توافر القوة القادرة على الردع، وتوافر إرادة استخدامها، وإقناع الخصم بتوفّر الأمرين السابقين معًا (أي توافر القوة والإرادة)؛ فإن فاعلية استراتيجية القسر تتوقف فقط على وجود القوة القادرة على فرض الهزيمة المطلقة على الخصم؛ وهو أمر لا يتحقق فعليًا بغير استخدام هذه القوة فوق مسرح العمليات. ولعل هذا يبدو أشد ما يكون في حركة الولايات المتحدة في العالم بدون حتى غلالة الشرعية الدولية التي كانت تجبر الأمم المتحدة على التصديق عليها.

وكما يقول وزير الخارجية كولين باول؛ فإن أمريكا تحدد موقفها أولاً، ثم تحدد المطلوب عمله، ثم تحاول بعد ذلك إقناع الآخرين بأن موقفها هو الصواب. وإن لم تنجح في إقناعهم فإنها تتحرك وفقًا لما تراه صوابًا[٦]. واستراتيجية "القسر" هذه تقوم على ما يُعرف في الأدبيات الأمريكية **بالحرب الاستباقية**؛ ففي يوم ١٧ سبتمبر ٢٠٠٢ أصدرت الإدارة الأمريكية وثيقة تحمل عنوان: "**استراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة الأمريكية**" ممضاة من الرئيس الأمريكي الذي قام بتقديم موجز لها؛ وهي رسميًا من إنجاز مجلس الأمن القومي (إحدى الدوائر الرئيسية المحددة للسياسة الخارجية الأمريكية) وتم ترويج استراتيجية القسر المعروفة بالحرب الاستباقية تحت اسم **عقيدة بوش**[٧].

وتدافع وثيقة الأمن القومي عن ثلاث أفكار أساسية:

أ) أن القوة الأمريكية تتميز بتفوق غير مسبوق: "**اليوم تتمتع الولايات المتحدة بموقع قوة عسكرية لا يوجد لها مثيل**"(مقدمة الرئيس بوش للوثيقة).

ب) أن المعضلة الأمنية الموجودة منذ ما قبل نهاية الحرب الباردة (أي الإرهاب) أضحت التهديد الرئيسي للأمن العالمي الراهن, غير أنها لا ترقى إلى مرتبة التهديد الرئيسي إلا لأنها تتوفر –حسب نص الوثيقة– على حلفاء في مرتبة دول "**مارقة**"؛ تتوفر على عداء للولايات المتحدة، وعلى أسلحة دمار شامل. وهكذا يشكل هؤلاء مجموعة واحدة من دون إبراز الأدلة على ذلك:

"**تحديات جديدة وقاتلة ظهرت من الدول المارقة والإرهابيين (...) خلال سنوات التسعينيات شهدنا ظهور عدد صغير من الدول المارقة (...) التي تشترك في عدد من الصفات (...) منها؛ ترهيب شعوبها (...) لا تولي أهمية للقانون الدولي (...) وهي مصممة على حيازة أسلحة الدمار الشامل (...) وتمول الإرهاب حول العالم (...) وترفض القيم الإنسانية الأساسية وتكره الولايات المتحدة والمبادئ التي تؤمن بها**". (ص١٣، ١٤).

ج) وفي النهاية فإن المواجهة العسكرية ضد هذه "المجموعات الإرهابية" ليست هي الهدف العسكري الرئيسي؛ بل إن "تحطيم" السيطرة السياسية المعادية للولايات المتحدة في مجالات جغرافية محددة –ممثلة في دول باسم "الدول المارقة"– هي المهمة العسكرية الأكثر إلحاحًا. غير أن طبيعة العدو –حسب الوثيقة– تفرض التخلي عن مفهوم "الردع"(Deterrence)؛ والذي لا يستلزم التدخل العسكري المباشر؛ وقد كان مفهومًا أساسيًا يتحكم بالسياسة الخارجية الأمريكية طيلة الحرب الباردة.

وفي المقابل؛ فإن هذه المرحلة الجديدة تفرض ضرب هذه الدول، دون انتظار تورطها في أعمال معادية؛ أي اعتماد سياسة "الحرب الاستباقية": "**يجب علينا أن نكون متهيئين لوقف الدول المارقة وأعوانها من الإرهابيين، قبل أن يصبحوا قادرين على التهديد أو استعمال أسلحة الدمار الشامل ضد الولايات المتحدة وحلفائها وأصدقائها(...) لقد مضت حوالي العشر سنوات حتى استطعنا أن ندرك الطبيعة الحقيقية لهذا التهديد الجديد(...)؛ فلا يمكن أن نترك أعداءنا يضربوننا أولاً(...) وكان –خلال الحرب الباردة– أسلوب الردع دفاعًا ناجعًا. لكن هذا الأسلوب المرتكز فقط على التهديد بالرد أصبح أقل نجاعة لمواجهة قادة الدول المارقة؛ والذين هم أكثر تصميمًا على المخاطرة والمراهنة بحياة شعوبهم وثروات أممهم(...) وعلى مدى قرون اعترف القانون الدولي بأن الأمم لا تحتاج للتعرض إلى اعتداء، قبل أن يتمكنوا شرعيًا من الرد للدفاع عن أنفسهم ضد قوات تمثل خطرًا وشيك الاعتداء. لقد اشترط علماء القانون**

والقضاة الدوليون شرعية الاستباق بوجود تهديد وشيك كثيًرا ما يتمثل في استنفارٍ بيّن للجيوش والأساطيل والقوات الجوية؛ استعدادًا للهجوم. يجب علينا أن نحيِّد مفهوم التهديد الوشيك مع قدرات وأهداف أعداء اليوم. الدول المارقة والإرهابيون لا يعملون على مهاجمتنا باستعمال الوسائل التقليدية(...) عوضًا عن ذلك يعتمدون على أعمال إرهابية، وفي إمكانهم أن يستعملوا أسلحة الدمار الشامل(...)، ولمنع أو استباق مثل هذه الأعمال المعادية من قبل أعدائنا؛ ستتصرف الولايات المتحدة, إذا دعت الضرورة, بشكل استباقي."(ص ١٤ و١٥ من وثيقة الأمن القومي)[٨].

ثالثًا– دور الإعلام الغربي والأمريكي في تأجيج الصراع ضد عالم المسلمين

منذ ما يزيد على ربع القرن، والعالم الإسلامي جملةً في مرمى نيران الإعلام الغربي عمومًا، والأمريكي تحديدًا.

ويمكن القول إن هناك أربعة عوامل رجحت كفة العداء للإسلام في العالم الغربي بشكل عام والأمريكي بشكل خاص: أما العامل الأول– فهو هزيمة الخامس من يونيه ١٩٦٧؛ حيث مالت الكفة لصالح المنتصر (فالحضارة الغربية لا تمجد إلا المنتصر، ولو كان مغتصبًا)، بالإضافة إلى نجاح هذا المنتصر (الدولة الصهيونية) في ربط قيمه ومنظومته الحياتية بعجلة الحضارة الغربية ومنهجها في الحياة، وتركيزه المستمر على التقاليد والثقافة المسيحية اليهودية، وعلى القواسم المشتركة بينهما، ومحاولته المستمرة لتسويق دوره باعتباره حاملة طائرات، وحامي المصالح الغربية عمومًا والأمريكية خصوصًا.

أما الأمر الثاني– فهو نجاح الثورة الإيرانية واحتجاز الرهائن الأمريكيين لمدة ٤٤٤ يومًا، وطرح الثورة الإيرانية لنموذج الدولة الإسلامية كنموذج بديل للدولة العلمانية التي تشكل عماد الدول في عالم المسلمين، ورفع إيران لسياسة لا شرقية ولا غربية في سياستها الخارجية، ومحاولتها تصدير الثورة في المرحلة الأولى من نشأة الدولة، ولا يزال احتجاز الرهائن في السفارة الأمريكية في طهران يشكل جزءًا من العقل الجمعي للمجتمع الأمريكي.

العامل الثالث– هو انتهاء الحرب البادرة، وحاجة الحضارة الغربية لعدو يمثل عنصر التحفيز من جهة، وعنصر الاستهداف من جهة أخرى؛ وهكذا لابد لهذه الحضارة من عناصر لشحذ فعاليتها, حتى لو قامت على العدوان والبغي؛ فلابد من حالة الاستنفار الدائمة؛ حتى يخرج ذلك النمط في الحياة أقصى عناصر قوته.

العامل الرابع– قارعة سبتمبر (تفجيرات نيويورك وواشنطن)؛ وهي التي يمكن القول عنها إنها مثلت حدًا فاصلاً؛ ليس في تاريخ العلاقة بين الشرق والغرب فحسب، بل في تاريخ العلاقة بين الإسلام والغرب على وجه العموم، والإسلام والولايات المتحدة على وجهه الخصوص.

أما أدوات تأجيج العداء الغربي ضد العالم الإسلامي فهي:

١– صناعة السينما؛ حيث لا يمكننا إغفال الدور البارز الذي قامت به **السينما الغربية** –وتحديدًا معقلها "هوليود"– في تأجيج نيران العداء الغربي والأمريكي ضد عالم المسلمين؛ حيث تشكل صناعة السينما –إلى حد كبير– ليس فقط الرأي العام على أهمية دوره في المجتمعات الغربية، بل الأهم من ذلك تشكيلها للوجدان، ولمجموعة القيم والرموز التي تمثل عصب الحياة في العالم الغربي:

– ففي أواخر الثمانينيات من القرن العشرين –مع أفول التحدي السوفيتي– بدأت عمليات التحضير لإبراز صورة العدو الإسلامي الخارق الذي ينتظره العالم بوجل وترقب كبديل للشيوعية المحتضرة؛ مثل فيلم "**ذي دلتا فورس والمنتقم**" عام ١٩٨٦، و"**الموت قبل العار**" عام ١٩٨٧، و"**سرقة السماء**" عام ١٩٨٨؛ حيث يأتي العدو العربي الإسلامي الخارق في مثل هذه الأفلام ممتلكًا أسلحة ذات قوة تدميرية شاملة؛ يهدد بها الأبرياء

الذين يتدخل الغربي "الطيب" من أجل إنقاذهم وحمايتهم؛ وهكذا تتحول المواجهة بين الغربي المدافع عن حقوق الإنسان، والشيوعي الأحمر الشرير؛ إلى مواجهة مع العدو الإسلامي الأخضر.

- وبعد حادث تفجير مركز التجارة العالمي ١٩٩٢؛ تولت هوليود كِبْر تسريب الإفك العظيم من خلال فيلم **"أكاذيب حقيقية"** بطولة "أرنولد شوارزينجر" (نجم الأكشن الأمريكي)؛ ويحكى عن إحدى الميليشيات العربية الموجودة داخل الولايات المتحدة، وتتخذ من كلمة **"الحرية الإسلامية"** شعارًا لها؛ تخطط له من خلال طائرة مخطوفة، وقنبلة شديدة الانفجار مهربة من خارج أمريكا؛ لإلقائها من خلال الطائرة وسط مدينة نيويورك؛ لإحداث الدمار المطلوب بأهم المنشئات الأمريكية القريبة من مركز التجارة العالمي، ولكن الفيلم يجعل البطل (ضابط المخابرات الأمريكية) وزوجته ينقذان نيويورك من الدمار بإجبار قائد الطائرة المسلم أن يصدم بطائرته إحدى المباني بعد إبطال مفعول القنبلة.

- فيلم **"اختطاف طائرة الرئيس الأمريكي"** بطولة "هارسون فورد" وإخراج "ستيفيد سبيلبرج" يتناول إجهاض المخطط الذي لم ينجح الإرهابيون في تحقيقه من تحطيم طائرة الرئيس، وقتل الرئيس "بوش"؛ وهذه المرة كان الإرهابيون ينتمون إلي دولة "داغستان الإسلامية المنفصلة عن الاتحاد السوفيتي".

- أما أحدث ما انشقت عنه جعبة الحقد والعداء الأسود والتشويه والترويع الغربي من الإسلام؛ فهو فيلم **"الحصار"** الذي احتفلت هوليود بالعرض التجاري له عام ١٩٩٨؛ والتي تدور أحداثه حول تعرض أمريكا "المسالمة" لإرهاب المسلمين "الأشرار"؛ حيث يبدأ بتفجير جراج مركز التجارة العالمي؛ ذلك الحدث الذي أفقد أمريكا براءتها وشفافيتها، وفتح أعينها المغمضة علي الإرهاب القادم من "الشرق الأوسط".

٢- المفكرون الاستراتيجيون:

ثم يأتي دور ما يسمى في الأدبيات الأمريكية think tankers؛ أي المخططين الاستراتيجيين، وصناع الفكر والاستراتيجيات والتوجهات العامة في الدولة والمجتمع على حد سواء؛ فالتكامل بين كل ذلك عضوي وليس ثمة تنافر أو صراع:

- ففي ربيع ١٩٩٠ ألقى هنري كيسنجر وزير خارجية أمريكا الأسبق خطابًا أمام المؤتمر السنوي لغرف التجارة الدولية قال فيه: **"إن الجبهة الجديدة التي على الغرب مواجهتها هي العالم العربي والإسلامي"**؛ باعتبار هذا العالم هو العدو الجديد للغرب.

- وعلى مدار عقد التسعينيات من القرن العشرين شكلت عدة كتب ما أطلق عليه ظاهرة **"الإسلاموفوبيا"**؛ وهي جزء من حملة شاملة من العداء والكراهية للإسلام في الغرب، ولعل أهم هذه الكتب كتاب صمويل هنتنجتون (**صدام الحضارات**) clash of civilization؛ وهو الذي روَّج فيه لنظرية حتمية الصدام بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية "المسيحية اليهودية". ويمكن القول إن البناء الفكري والسياسي الغربي القائم على فكرة الصدام بين الحضارات قد وضع نفسه في حالة حرب مع هذا العالم الإسلامي؛ حيث صنعت كثير من الكتابات الفكرية من هذا العالم عدوًا مضمونًا، وبنت جدران الكراهية حجرًا حجرًا.

ذلك أن سقوط المعسكر الشرقي لم يأت بفكر عقلاني غربي قادر على مقاربة هذا العالم الإسلامي -ومنه العربي- في قضاياه مقاربة سلمية متوازنة ومتفاعلة؛ فقد بنيت مجمل السياسات على قاعدة الانتصار التاريخي ضد الاتحاد السوفياتي، وجرى التعامل مع العالم الإسلامي (العربي) باعتباره

قابلاً للتفاعل مع الغرب بشروط الغرب عمومًا، والولايات المتحدة على وجه الخصوص.

ومثالاً على ذلك القضية الفلسطينية؛ التي لم تدرك أمريكا –ومعها الغرب– حجم هذه القضية وأهميتها لمئات الملايين الذين لا يزالون عاجزين عن تقبل هذه السياسات الأمريكية الظالمة بحق الشعب الفلسطيني، والدعم الفاضح والإجرامي لدولة تمارس إرهاب الدولة بكل المقاييس ضد شعب أعزل، وتغتال رموزه وقادته، وتشرد نساءه وشيوخه وأطفاله.

٣– وسائل الإعلام الغربية:

حيث التقطت وسائل الإعلام نظرية "صراع الحضارات" وطورتها وروجتها؛ حتى تعمقت ليس في وجدان الرؤساء الغربيين والنخبة فقط, بل في وجدان الرجل الغربي العادي؛ بحيث صار الإسلام هو العدو الجديد بعد سقوط الشيوعية. ولعل هذا هو الأمر الذي لا يجعلنا نتجاهل دور وسائل الإعلام الجماهيرية في تشكيل الرأي العام:

- ففي تاريخ ١٩٩٠/٦/١٥ نشرت صحيفة "الصنداي تلجراف" البريطانية مقالها الرئيسي بعنوان **"هل يقبرنا الإسلام؟؟"**
- وفي نفس التاريخ نشرت صحيفة "الصنداي تايمز" افتتاحيتها عن التهديد الأصولي المسلم الذي يمتد من شواطئ البحر المتوسط في شمال إفريقيا إلي آسيا الوسطى وحدود الصين.
- وفي إبريل ١٩٩٢ كان موضوع الغلاف لمجلة "الإيكونومست" حول الإسلام، إلى جانب صورة لرجل يرتدي ملابس تقليدية، ويقف أمام مسجد وهو يحمل بندقية. وفي نفس التوقيت تخرج مجلة "تايم" الأمريكية بتقرير بعنوان: **"الإسلام ...هل يجب على العالم أن يخاف؟"**، ونشرت علي غلافها صورة لمئذنة إلى جانبها يد تحمل بندقية آلية ..!!، ولقد كانت الحملة الإعلامية ضد الإسلام من الفجاجة بمكان؛ مما جعل مجلة "الليموند دبلوماتيك الفرنسية" تقول في ديسمبر ١٩٩٢: **"إن محاربة الإرهاب ليست حربًا عسكرية فحسب؛ بل هي حرب ثقافية في المقام الأول، وإن شعار التحالف الدولي من أجل محاربة الإرهاب الذي يرفعه الرئيس "كلينتون"، ويوافقه عليه عدد كبير من قادة الشعوب, بل ومن قادة البلاد الإسلامية؛ ما هو إلا شعار يحمل في طياته خبثًا؛ وهو شن حرب عالمية شاملة ضد الإسلام لاقتلاعه".**
- وبعد تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر تأتي **"الفرصة السانحة"**؛ فيصرح كيسنجر أيضًا يوم ٢٠٠١/٩/١٥ بأن الحرب ضد الإرهاب الإسلامي يجب أن تبدأ اليوم وليس غداً.

لقد أشعلت النخبة السياسية والاقتصادية (حيث تتشابك معادلات السلطة وصناعة القرار مع المصالح الاقتصادية الاستراتيجية؛ فالمحافظون الجدد الذين يسيطرون على البيت الأبيض ليسوا مجرد استراتيجيين فقط؛ بل أيضًا رجال أعمال) حرب الحضارات في الولايات المتحدة، بعد أن مهدت التربة وجهزت العقول والقلوب لتوجيه الاتهام للعرب والمسلمين؛ وهي ليست حربًا بمعنى تفاعل متبادل من قبل طرفين؛ بل تنفيذ عملي لما يمكن تسميته **"بسياسات البغي"** من قبل حضارة في أوج قمتها المادية، على حضارة في طور الأفول.

لقد صرح رئيس الولايات المتحدة جورج بوش علانية؛ أن **"الحملة الصليبية القادمة"**ستكون طويلة الأمد لتخليص العالم من "الأشرار"؛ مما جعل "هوبير فيدرين" وزير الخارجية الفرنسي يصرح في ٢٠٠١/٩/١٥ أن **"المسئولين عن الاعتداءات في الولايات المتحدة يخططون بشكل جنوني لإثارة المواجهة بين كتلتين للوصول إلي صدام الحضارات"**، كما عبر عنها الرئيس الإيراني "خاتمي" في اتصاله "بتوني بلير" رئيس وزراء بريطانيا في ٢٠٠١/٩/٢٠ بقوله **"إن الرئيس بوش بردود أفعاله المتسرعة سوف يشعل حرب الحضارات".**

رابعًا– إيران في مرمى النيران الأمريكية

طويلة هي سلسلة الضغوط الأمريكية على إيران؛ وهي ليست طويلة فقط بل متوالية؛ فمن إسقاط حكومة مصدّق في العام ١٩٥٣–من قِبَل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية "CIA"– إلى قيام الثورة في إيران ١٩٧٩، وهناك تاريخ من العداء المتبادل يترسخ في وجدان النظامين كل يوم عن الذي قبله.

ومنذ قيام الثورة الإيرانية ١٩٧٩م وحتى الآن؛ اتبعت الولايات المتحدة مع إيران عدة سياسات؛ الهدف منها محاولة وضع إيران بشكل دائم في حالة المواجهة, ومحاولة استنزاف قواها, وتهديد حدودها من مختلف الجهات, ووضعها في حالة استنفار دائم، والعمل على تفجير الدولة من داخلها.

ومن أمثلة ذلك معاضدة واشنطن للنظام البعثي في العراق إبّان حرب الخليج الأولى، ومرورًا بضرب المنشئات البترولية في عبدان عام ١٩٨٨ من قِبَل الأسطول الأمريكي المرابط في مياه الخليج؛ ومن ثم أسقط الطراد الأمريكي فينينس طائرة الإيرباص الإيرانية ١٩٨٧، وقتل جميع ركابها الـ ٢٩٠.

ولقد تتابعت تلك السياسة الأمريكية المعادية تجاه إيران لتُضيف ما يكفي لوأد أي تحرك بالاتجاه الآخر؛ فقد دأبت الإدارات الأمريكية المتعاقبة على البيت الأبيض على حصار إيران، ووضعها دائمًا في مربع الدفاع عن النفس[٩]. **ويمكن رصد أهم تلك السياسات الأمريكية تجاه إيران في:**

- استنزاف إيران عسكريًا في حرب ضروس مع العراق ١٩٨٠م، أكلت الأخضر واليابس، ودمرت البنية التحتية، ووقفت فيها أمريكا وحلفاؤها بكل قوتهم مع العراق، بل وتدخلت أمريكا مباشرة في الحرب ١٩٨٨م؛ بضربها عددًا من المنشئات البترولية الإيرانية، وإسقاطها للطائرة المدنية الإيرانية التي راح ضحيتها ٢٩٠ شخصًا، ووفقًا لتقديرات إيرانية منشورة؛ فقد بلغت الخسائر الإيرانية من جراء ذلك حوالي ٨٧١,٥ بليون دولار!.
- الحصار السياسي بتعبئة دول العالم ضدها؛ خاصة دول الجوار، وإدراجها ضمن دول "محور الشر".
- الحصار الاقتصادي بتجميد أرصدتها لدى البنوك الأمريكية، ثم سنّ قانون مقاطعة الاستثمار المعروف بقانون **"داماتو" ١٩٩٦**؛ والذي يحظر على الشركات الأجنبية استثمار أكثر من ٤٠ مليون دولار في قطاعي النفط والغاز الطبيعي، كما يقضي بحرمان الشركات التي تتعاون مع إيران من دخول السوق الأمريكية، أو الحصول على ضمانات تزيد على عشرة ملايين دولار في السنة من بنك الاستيراد والتصدير الأمريكي، وكذلك حظر الاشتراك بالعقود الحكومية، أو الاتجار بالسندات التي تصدرها الخزانة الأمريكية، ويجدد القانون كل خمس سنوات.
- إثارة القلاقل داخل إيران، وتشجيعها ودعمها، واللعب على وتر الخلاف بين الإصلاحيين والمحافظين، ولعل آخرها ما عرف بمظاهرات الطلبة[١٠]. فكما يقول "كنت تيرمن" بوكالة الاستخبارات الأمريكية: إن هناك خطة شاملة استراتيجية تهدف إلى إحداث فجوة بين الشعب الإيراني والنظام، واستغلال أنصار الديمقراطية، وتشكيل كتلة معارضة للنظام، ويضيف: **"إن استراتيجية مجابهة إيران تستلزم دراسة دقيقة لأهداف وماهية النظام الإسلامي الإيراني، وبعد ذلك نبحث كيفية استغلال نقاط قوتنا لإنهاك النظام، واستغلال التناقضات الداخلية، وأن نجعل النظام يحفر قبره بيده"**، مشيرًا إلى أن الهجوم الثقافي هو أهم أداة تمتلكها أمريكا لمجابهة نظام طهران[١١].
- اتباع سياسة الاحتواء المزدوج **Dual Containment** ١٩٩٣ ضد العراق وإيران؛ والذي كان مُنظِّرها السفير مارتن إنديك.

- إبراز إيران كدولة مناوئة للسلام العالمي أمام الأسرة الدولية.
- عرض ومتابعة الشكاوى القانونية في المحاكم الأمريكية ضد إيران.
- الضغط على روسيا[١٢] والصين؛ لوقف تعاونهما النووي مع إيران.
- الضغط على أوروبا واليابان والعالم العربي وآسيا الوسطى ودول القوقاز؛ بهدف تقليص تعاونهم مع إيران، وتقييدهم بشروط[١٣].
- الضغط على تركيا لإيقاف اتفاقها الضخم مع طهران، والقاضي بأن تُزوِّد الأخيرة أنقرة بالغاز المسال (مدة العقد ٢٠ عامًا بتكلفة تقارب ٢٣ مليار دولار).
- تخصيص مبلغ ٢٠ مليون دولار من قبل الكونغرس الأمريكي؛ بغرض ممارسة أعمال استخباراتية سرية لزعزعة النظام الإسلامي الحاكم في إيران.
- تدبير حملات إعلامية واسعة حول المخاطر الناجمة عن قدرات إيران الصاروخية والعسكرية، لا سيما على صعيد القدرات النووية.
- تشغيل الشبكات التلفزيونية والإخبارية الفارسية الموجهة ضد إيران.
- إلغاء الحظر الأمريكي على تصدير الأسلحة إلى طاجكستان؛ لخلق توازن جديد في آسيا الوسطى.
- العمل على مد حلف الناتو إلى آسيا الوسطى؛ بهدف فصل إيران من الشمال والشمال الشرقي عن كل من روسيا والصين.
- الاندفاع نحو أذربيجان وأوزبكستان بعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١؛ لخلق فرص حقيقية للتواجد الأمريكي بالمنطقة.
- زج اسم إيران فيما يُسمى بـ **"محور الشر"** في يناير ٢٠٠٢.

وبعد أحداث ١١ سبتمبر، وحين أُقِرَّت وثيقة استراتيجية الأمن القومي الأمريكي؛ بدا الموقف الأمريكي جدّ مختلف؛ فقد حتّمت الوثيقة على سياسة الدولة الخارجية الانتقال من العمل التعاوني النسبي مع القوى الدولية، إلى التحرك المنفرد -متجاوزةً كل مكتسبات العمل الجمعي والقانوني الدولي السائد منذ الحرب العالمية الثانية- ورفض الارتكاز على العقوبات بالأساس في صنع السياسة الخارجية -خصوصًا لما لها من آثار سيئة على الاقتصاد الأمريكي- واللجوء مباشرة للقوة العسكرية.

وعليه فإن السياسة الأمريكية تجاه إيران باتت أكثر تماسًا ومباشرة من ذي قبل؛ خصوصًا مع تنامي بعض الاتجاهات القوية داخل الإدارة الأمريكية ممن يُسَمّون **بالصقور**؛ الذين يتبنون توجهات متشددة في السياسة الدولية وبالخصوص تجاه إيران[١٤]؛ حيث يضعونها كهدف مستقبلي لتدخل أمريكي حاسم، ويشمل هذا الاتجاه أسماء مثل ريتشارد بيرل، وبول ولفوويتز، ودوجلاس فيث؛ وهؤلاء يؤكدون أن الولايات المتحدة يجب أن تستغل فرصة النجاح العسكري الكبير في العراق ضد الأنظمة المتمردة اليوم قبل الغد، وأن برامج إيران النووية، وبرامجها لتطوير الأسلحة غير التقليدية، ودعمها العسكري والمالي لحركات المقاومة الفلسطينية وحزب الله، ودورها -المزعوم في انفجار مقر المارينز في بيروت عام ١٩٨٣ (والذي قُتِل فيه أكثر من ٢٥٠ من جنود البحرية الأمريكية)؛ تُعدّ جميعها أسبابًا كافية لتوجيه ضربة عسكرية خاطفة لها.

وقد صاحبت تلك الرؤية الراديكالية ظهور دراسات من مراكز أبحاث يمينية ساعدت في إذكاء تلك الاستراتيجية بخطط أخرى تدعيمية؛ وهو ما نراه في حديث رابت ساتلات مدير مؤسسة واشنطن؛ الذي ذكر صراحة في فصلية "المصالح القومية" أن واشنطن يجب أن "**تحاصر إيران في قضايا الأمن الداخلي والخارجي؛ بحيث تشغلها عن التقدم ووضع العراقيل أمامها، وتزجها في مواقف تضطر فيها للدفاع اليومي عن نفسها ضد عشرات الأنواع من الاتهامات والمخاطر؛ وهو ما سيؤدي إلى استياء عام في الداخل،**

بالإضافة إلى وجود الثغرات السياسية في النظام الإيراني، وازدياد المشاكل يمكن أن يضع البلاد أمام تحديات كبيرة". كما علَّق ريشارد بيرل (أحد القادة الجمهوريين الكبار) في خطاب له بتاريخ ١٤ نوفمبر ٢٠٠١ (في مؤسسة السياسة الخارجية) **"بأن الطريق الوحيد لمواجهة إيران بعد أحداث ١١ سبتمبر هو تغيير بنية السلطة في إيران".**

ومما تُؤكده وثيقة الأمن الاستراتيجي الأمريكي أن الولايات المتحدة الأمريكية انتقلت فعليًا من سياسة الردع والاحتواء إلى استراتيجية الهجوم الوقائي، ومن الردع الاستراتيجي -الذي كان سائدًا في الحرب الباردة- إلى الحرب الاستباقية Preemptive[١٥]؛ وهي أجندة تذهب إلى الحد الأقصى في العلاقات الدولية.

إلا أن السياسة النيوإمبريالية التي رسمتها الولايات المتحدة بعد أحداث سبتمبر قد لا تستطيع الدخول في مواءمات المعادلة الإقليمية والدولية الفعلية إلى الحد الذي يمكِّنها من تنفيذ تلك السياسة التصادمية المباشرة مع إيران، على غرار ما فعلته في العراق، والنتائج المأساوية التي نجمت عن احتلال ذلك البلد؛ **وهذا ما يُمكن تحديده بالآتي:**

(١) رغم تلويح الإدارة الأمريكية باحتمالات توجيه ضربة عسكرية مباغتة لإيران؛ إلا أن القوة التي تتسم بها إيران من الناحية العسكرية (منظومة صواريخ شهاب والبنية العقائدية الصلبة لقوات حرس الثورة الإسلامية الباسدران، وقوات التعبئة الشعبية الإسلامية البسيج) ومن الناحية الدبلوماسية (التي تجلّت بقوة في محادثات الرباعي بطهران مع وزراء خارجية أوروبا القديمة حول توقيع إيران على البروتوكول الإضافي للوكالة الدولية للطاقة الذرية) ستجعل واشنطن تتحرك وقتًا طويلاً للحصول من طهران باللاحرب على ما يمكنها أن تناله بالحرب؛ وهو ما يدركه الإيرانيون جيدًا؛ مما يجعلهم يعملون على دحض الذرائع التي يمكن أن تفضي إلى عمل مسلح، خصوصًا وأنهم (أي الإيرانيون) كانوا -ومازالوا- يعتقدون بأن هدف الإدارة الأمريكية من الحرب ضد العراق -بالإضافة إلى كسر شوكة القوة العسكرية العراقية، وإضعاف تأثير البُعد القومي والاستراتيجي للعراق تجاه القضية الفلسطينية بشكل خاص، والقضايا العربية بشكل عام- محاصرة إيران جغرافيًا وسياسيًا؛ الأمر الذي يجعلها أكثر قابلية للابتزاز، والرغبة في إخضاع أسلحتها المتطورة، وبرنامجها النووي المتعاظم للمجهر أمريكي.

(٢) كما أن الولايات المتحدة -وبعد تصاعد خطر المقاومة العراقية ضدها في العراق- باتت أحوج ما تكون لطهران للعب دور ما ولو كان محدودًا في الملف العراقي الشائك؛ لما للإيرانيين من نفوذ كبير على قطاعات واسعة من منظمات وأحزاب عراقية فاعلة، وخصوصًا في الجنوب؛ فرغم حجم المشاكل السياسية والتاريخية وتداعياتها على البلدين (العراق وإيران)؛ إلاّ أن بينهما قواسم مشتركة لا يمكن للسياسة ولا الساسة أن يغيروا من حقيقتها وجلائها؛ فالعراق بالنسبة لإيران -والعكس صحيح- يمثل غورًا استراتيجيًا رئيسيًا تُبنى عليه مصالح الدولتين، وممرًا مهما يُمكّنهما من العبور نحو الكثير من المواقع الإقليمية الحيوية في المنطقة؛ وهو ما عبَّر عنه وزير الخارجية الإيراني كمال خرَّازي في مقابلة مهمة أجرتها معه فصلية "إيران والعرب" في عددها الثالث (شتاء ٢٠٠٣).

كما أن واشنطن، وإن لم ترتضِ لإيران أن تلعب دورًا ما في العراق؛ فإنها على الأقل ستحاول تحييدها إزاء التطورات الحادثة فيه؛ فواشنطن تعلم جيدًا حجم الحضور الإيراني في العراق؛ الذي يمكن أن يعرقل مخططاتها وتطلعاتها النفطية فيه.

(٣) إن ضرب إيران قد يُشعل منطقة الشرق الأوسط المتوترة أصلاً، ويزجها في اللامتوقع؛ فلا يمكن تصور الرد العسكري الإيراني -مع وجود قوة دفاعية مُوجعة لديها- إزاء أي اعتداء يُشن عليها؛ سواء من إسرائيل، أو من الأساطيل الأمريكية المرابطة في الخليج

والبحر الأبيض المتوسط وبحر العرب، والواقع أيضًا إنه إذا ما أقدمت واشنطن على عدوان عسكري ضد إيران؛ فإنه وبالإضافة إلى أن طهران ستحتفظ بحق الرد المناسب لنفسها؛ فإنها قد تُشعل الجبهة الشمالية لإسرائيل عبر حزب الله؛ وهو ما تخشاه إسرائيل بشدة.

في النهاية؛ فإن واشنطن تدرك جيداً أن إيران -بجيشها القوى، ومصالحها المتينة والمتشابكة مع قوى عالمية، وبالخصوص مع أوروبا واليابان والنمور الآسيوية، وعلاقاتها المتنامية مع محيطها الإقليمي، ونظامها السياسي الديمقراطي، ونخبتها السياسية والفكرية النشطة، ومجتمعها الذي يتطور باستمرار عبر حِراك طبيعي وخلاّق مهما كانت درجة حدته- لن تكون أبدًا بطنًا رخوًا، ولقمة سائغة في فم القوة الأمريكية[١٦].

وعلى الجانب الإيراني حاولت إيران ألا تقف دائمًا في مرمى النيران الأمريكية؛ فاتبعت سياستين على التوازي.

السياسة الأولى- التفكير والتعامل بمنطق الدولة وليس منطق الثورة، بل إلى حد كبير بمنطق "**الدولة القومية** " التي لا تفكر خارج إطار حدودها السياسية، وليس حتى الدولة صاحبة الرسالة الأيديولوجية.

السياسة الثانية- التراوح بين الشدة والضعف؛ حيث تركز التفكير والتعامل الإيراني مع الولايات المتحدة على سياسة "ألا تكون صلبًا فتكسر، أو لينًا فتعصر"؛ فحرصت إيران ألا تتشدد بالقدر الذي يستفز الولايات المتحدة فتعمل على كسرها، أو تكون من الليونة والتساهل بشكل يسمح بعصرها، وبين ذلك وذاك علَّمت **سياسات البغي الأمريكي** الدول كيفية السير على الحبال، وكيفية تحاشي أن تصيبها تلك النيران العدوة.

ومن مجموع هذين السياستين نسجت معالم "طبيعة" خاصة للعلاقات الأمريكية/الإيرانية. ويمكن تلمس معالم هذه الطبيعة من خلال "الحياد الإيجابي" الذي تبديه إيران تجاه معظم مصالح الولايات المتحدة وصراعاتها في منطقة نفوذ الدولة الإيرانية.

"**الحياد الإيجابي**" بدا جليًا من خلال استراتيجية إيرانية لا تمانع في استمرار تمدد رقعة وعمق النفوذ الأمريكي في تلك المنطقة، مادام لا يتصادم مع المصالح الإيرانية العليا؛ فإيران تعاونت تعاونًا كاملاً مع الولايات المتحدة لإطاحة نظام طالبان في أفغانستان، وبادرت بتقديم مساعدات لوجيستية لجيش الغزو الأمريكي في أفغانستان، وأمنت للأمريكان -بقدر ما تستطيع . منطقة الحدود الغربية الوعرة لأفغانستان؛ لمنع تسلل مقاتلي طالبان إليها، ونجحت -مع الولايات المتحدة- في الإطاحة بنظام طالبان المعادي لها في مقابل ضمان مشاركة أكبر لحزب الوحدة الشيعي في الحكم الأفغاني، وضمان عودة اللاجئين الأفغان في إيران إلى بلادهم.

وفيما يخص العراق؛ فقد التزمت إيران بحيادها في الحرب التي شنتها الولايات المتحدة، ولقد جنت من تعاونها المريب مع الولايات المتحدة ثمارًا تتلخص في؛ تخلصها من نظام لم يخفِ عداءه لإيران، وتعزيز مكانة إيران بإتاحة فرصة للشيعة للتغول في العراق؛ استنادًا إلى نسبة تعدادهم في العراق إلى باقي السكان (والتي تخضع لمبالغة الولايات المتحدة وإيران على السواء)، وخضوع النظام السياسي للعراق الجديد -الذي يحتمل أن يكون شيعيًا- لإيران، أو على الأقل تقاربه مع نظام إيران، وزيادة المساحة التأثيرية لإيران بين دول الخليج التي بها أقليات شيعية. ويحاول النظام الإيراني استثمار هذه المكانة؛ فمصلحة إيران الحقيقية ليست فقط تحييد العراق؛ وإنما تحقيق قدر من الهيمنة على حكم العراق.

وعراقٌ إيرانيُّ الهيمنة له دلالتان: الأولى- التهديد الوحيد لإيران يأتي من الشمال، ويمكن لطهران أن تركز على منع ذلك التهديد. **الثانية-** جعل إيران القوة الإقليمية الرئيسية في الخليج؛ لذا فإن وصول مجموعات شيعية -مدعومة من قبل إيران- إلى السلطة في العراق يمثل انقلابًا

جغرافيًا سياسيًا بالنسبة للولايات المتحدة؛ وهذا نقيض ما كانت تطمح إليه الولايات المتحدة؛ إذ إن أحد أسباب غزو العراق هو قدرة واشنطن على السيطرة على إيران وقدراتها النووية[١٧]، لكن تطورات الأوضاع على مدار عام بكامله خلقت حقائق استراتيجية جديدة لواشنطن ليست كلها غنائم.

لذا؛ فإن كثيرًا من المراقبين لا يولون التهديدات الأمريكية لإيران اهتمامًا كبيرًا؛ بالنظر إلى معطيات تشي بأن العلاقة بين الدولتين لمَّا تصل بعد إلى حد الصدام، ومن هذه المعطيات:

١- استمرار الحوار بين الولايات المتحدة وإيران؛ إذ بدأ الحوار مواكبًا للعدوان على أفغانستان، واستمر حتى العدوان على العراق؛ حيث دفع "احتلال" الجنود الأمريكيين للعراق إيران إلى التفكير في رفضها التاريخي للحوار مع الولايات المتحدة، لكن بدون معرفة إلى أي حد ستذهب في احتمال إعادة النظر في مبدأ أساسي للنظام.

٢- امتناع حزب الله عن إثارة غضب الولايات المتحدة؛ حتى مع تفجير سيارة أحد نشطاء الحزب في بيروت في ٤/ ٦/ ٢٠٠٣؛ وهذا من شأنه أن يسحب البساط من تحت أقدام الأمريكيين في تحميل الحزب أي دور "إرهابي" أو حتى "نضالي" في المنطقة.

٣- عدم إبداء الولايات المتحدة لمخاوف من المناورات العسكرية المتكررة التي تقوم بها طهران في مياه الخليج.

٤- استجابة إيران لطلبات الهيئة الدولية للطاقة الذرية بالتفتيش على منشئاتها، وفي المقابل عدم تشدد الولايات المتحدة في هذه القضية، مثلما كانت متشددة حين عزمت على غزو العراق.

ربما كانت إيران تواجه بعض المصاعب من الولايات المتحدة؛ خصوصًا بعد تغيير معادلة القوى في المنطقة لصالح الولايات المتحدة، لكن هذه المصاعب أقرب أن تمثل ضغوطًا من الولايات المتحدة على إيران لتطويعها، منها أن تكون إرهاصات حرب؛ فإيران ليست العراق.

أما عن مستقبل العلاقة بين إيران والولايات المتحدة، فيمكن القول إن هناك ثلاثة عوامل تحكم مستقبل العلاقة بين البلدين وهي:

- القضايا التي تهم البلدين راهنًا؛ أي الأجندة المطروحة على بساط البحث.
- موقف الإدارة الأمريكية والأجنحة المتصارعة فيها.
- السلطة الإيرانية ومواقف التيارات المتصارعة فيها بشان الولايات المتحدة.

الموضوع الأول- ويشمل عدة قضايا أهمها:

- قضية تطوير الأسلحة النووية في إيران (وسنتعرض لها في موضوع مستقل).
- ومسألة العراق (وفيها موضوع منظمة مجاهدي خلق؛ والخلاف بين البلدين على طريقة التعامل معها واضح، وطلب أمريكا من إيران الكف عن إثارة الشيعة في العراق).
- وقضية الصراع الإسرائيلي/الفلسطيني (وفيها تضغط الولايات المتحدة لتأخذ إيران مواقف أكثر موالاة لأمريكا فيها، أو ما تسميه دعم عملية السلام في الشرق الأوسط؛ وذلك إما بشكل مباشر، أو عن طريق ضغطها على حزب الله في لبنان).
- وقضية إعادة العلاقات بين البلدين (وهي غير مطروحة إلى الآن في المحادثات بين البلدين).

الموضوع الثاني- وهو موقف الإدارة الأمريكية والأجنحة المتصارعة فيها؛ وهو في الواقع يتجسد في الخلافات بين الصقور والحمائم في وزارتي الدفاع والخارجية. وتبذل الحكومة الإيرانية جل جهودها -باتصالاتها مع الإدارة الأمريكية- لدرء أي مغامرة عسكرية مفاجئة يقوم بها صقور البنتاجون ضد منشئاتها النووية في مدن بوشهر وأراك ونطنز؛ خاصة وأن الليكوديين في إسرائيل وحلفاءهم في البيت

الأبيض يصرون -ومنذ فترة- على القيام بمثل هذا الهجوم العسكري.

الموضوع الثالث- الصراعات بين أجنحة السلطة في إيران؛ فيما يخص طريقة التعامل الإيراني مع الولايات المتحدة.

ولكن هل ستظل إيران أحد الأهداف الأمريكية المطلوب تصفيتها؛ أم ستكتفي الولايات المتحدة بإجراء تعديلات جذرية على النظام الإيراني؛ يغير بها ليس فقط من سياساته؛ بل من فلسفة النظام ذاته، وجوهر وجوده؟ وهل ستظل الولايات المتحدة تستبعد اعتماد الخيار العسكري في إيران؟ أم تغير من توجهها؟ هذه أسئلة المستقبل؛ ليس البعيد، بل القريب.

خامسًا- الصراع الأمريكي الإيراني على السلاح النووي:

الملف النووي الإيراني أحد ثلاثة ملفات تضغط بها الولايات المتحدة على إيران (الملفان الآخران هما ملف أفغانستان، وملف العراق). وإذا كانت إيران قد سلمت في الملفين السابقين لتصادف اتفاق المصالح الإيرانية الاستراتيجية مع الأهداف الأمريكية؛ فإن إيران مازالت تساوم في الملف النووي.

وإذا كانت الولايات المتحدة قد وضعت إيران ضمن ما أسمته **"محور الشر"**؛ فإن العراق الذي هو أحد أضلاع مثلث هذا المحور قد سقط، ويبقى الضلعان الآخران كوريا وإيران، وطبيعي أن تختلف السياسة الأمريكية مع كل ضلع عن الآخر.

لقد استصحبت أحداث الحادي عشر من سبتمبر معها أحداثًا دولية، مهدت لاستفراد الولايات المتحدة بالعالم، وفرض نفسها كقوة عظمى وحيدة في العالم. وتوج جورج بوش الرئيس الأمريكي ذلك الاستفراد في الخطاب الذي ألقاه بمناسبة "حال الاتحاد" عام ٢٠٠٢؛ والذي وسم فيه ثلاث دول بما أسماه «محور الشر»، وبعدها حدد العراق وإيران وكوريا كأضلاع لهذا المحور، وأضاف أن هذه الدول وحلفاءها (الإرهابيين) تشكل تهديدًا للسلام في العالم، وتعهد بالعمل ضدها لحرمانها من امتلاك المواد والتقنيات والخبرات؛ لصنع الأسلحة النووية والكيماوية والبيولوجية، وتوفيرها للمنظمات "الإرهابية"، وأطلق تحذيره الذي قال فيه: **"على كل الدول أن تعرف أن أمريكا ستفعل كل ما يلزم لضمان أمنها، ولن تنتظر اقتراب الخطر"**؛ ممهدًا بذلك لما أصبح يعرف دوليًا بالحرب الاستباقية-أو الوقائية- وهو المفهوم الذي يعني توجيه ضربات عسكرية استباقية لمكامن الخطر ووأدها قبل أن تنفجر.

ويمكن القول إن ضلعي محور الشر (إيران وكوريا الشمالية) قد استحوذتا على نصيب وافر من التقارير الصحفية والتحليلات السياسية خلال العام ٢٠٠٣، وتصدرتا الأجندة الأمريكية والأوروبية والآسيوية خلال هذه الفترة؛ **فالأولى**- استطاعت -من خلال سعيها لامتلاك الأسلحة النووية- إثارة الإدارة الأمريكية؛ التي هددت بنسف البرنامج النووي الإيراني، **والثانية**- استطاعت -وبذكاء شديد وقراءة متعمقة لحقائق وموازين القوى؛ سواء في منطقة شرق آسيا أو داخل دوائر صنع القرار في واشنطن- تعطيل أي ضربة عسكرية أمريكية ضد برنامجها النووي.

وفيما يخص الحالة الإيرانية نجد أن حدة الصراع تصاعدت بين الولايات المتحدة وإيران بشأن البرنامج النووي الإيراني على الساحة الدولية، وإن كان ذلك يخفي وراءه قضايا أخرى عالقة؛ تمثل حقيقة الصراع بين إيران من جهة، وأمريكا وإسرائيل من جهة أخرى؛ وذلك منذ أن ضمت الإدارة الأمريكية إيران إلى محور الشر؛ لذلك يأتي البرنامج النووي الإيراني في مقدمة أولويات السياسة الخارجية الأمريكية.

ورغم أن الملف النووي الإيراني كان يحظى باهتمام أجهزة الاستخبارات العالمية -وخاصة الأمريكية- إلا أن معطيات أحداث عام ٢٠٠٣ أبرزت القضية إلى السطح؛ وخاصة بعد حربي أمريكا في أفغانستان والعراق، مع إصرار الولايات المتحدة على التدخل في أي منطقة في العالم؛ سواء لمكافحة «الإرهاب»، أو أي قضية أخرى.

لمحة تاريخية عن البرنامج النووي الإيراني

وعودة لتاريخ السلاح النووي الإيراني نجد الولايات المتحدة أول من تقدَّم لمساعدة إيران لدخول نادي الدول النووية؛ وذلك عندما اشترى الشاه رضا بهلوي أول مفاعل نووي أمريكي لمركز أمير باد للأبحاث النووية، وواصل خططه، وأعلن عن تأسيس الهيئة الإيرانية للطاقة الذرية العام ١٩٧٤، ودخل في مفاوضات لشراء المزيد من المفاعلات النووية، ووقع اتفاقية مع أمريكا لتزويد بلاده بالوقود النووي عام ١٩٧٤ أيضًا.

وبهذا يكون للولايات المتحدة دور بارز في دخول إيران في المجال النووي، ولكنها الآن تقف ضدها؛ في محاولة لاستغلال الموقف للوصول إلى غاياتها، وتنفيذ مخططاتها في المنطقة.

ومنذ أن أعلن الرئيس جورج بوش بكل دقة أن الولايات المتحدة **"لن تتساهل"** مع قيام إيران باقتناء السلاح النووي؛ في خطابه حول حال الاتحاد عام ٢٠٠٢، وكان الإعلان بمثابة التحذير الأخطر والأكثر تحديدًا الذي تتلقاه طهران، ثم اتهمت الوكالة الدولية للطاقة الذرية السلطات الإيرانية علنًا بإخفاء جزء من البرنامج النووي الإيراني، كما انضمت دول الاتحاد الأوروبي إلى الولايات المتحدة في مطالبة إيران بالموافقة الفورية –ومن دون شروط– على ملحق معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية؛ والتي تتيح عمليات تفتيش مفاجئة.

ومن أجل تقدير القدرات النووية لإيران، علينا الانطلاق من الأوضاع التي نحن فيها؛ ففي عهد الشاه قررت إيران إطلاق برنامج أبحاث يؤدي إلى إنتاج سلاح نووي، وكانت إيران –خلال المرحلة الأخيرة الأكثر قساوة من مراحل الحرب الباردة– بمثابة الشريك للولايات المتحدة عند الحدود الجنوبية للاتحاد السوفييتي؛ فلا غرابة أن السلطات الأمريكية لم تكن تعارض هذا البرنامج، بل ساعدت في إطلاقه، وانتهى البرنامج مع الثورة الإيرانية، ثم أعيد النظر في هذا الخيار عام ١٩٨٢؛ عندما تعرضت إيران للهجوم العراقي وهي تعاني من الحصار، في الوقت الذي كان خصمها يحصل على الأسلحة، لكن إحياء البرنامج النووي كان ينبع من تحليل استراتيجي واسع النطاق؛ حيث كانت إيران في مواجهة أسلحة نووية موجودة، أو قيد الإعداد لدى جميع جيرانها (الاتحاد السوفييتي وباكستان، إضافة للعراق وإسرائيل) فاعتبر القادة الإيرانيون أنه من المستحيل عليهم أن يبقوا مكتوفي الأيدي.

مهما يكن من أمر؛ فإن الرئيس خاتمي والتيار الإصلاحي عمدوا فور وصولهم إلى السلطة عام ١٩٩٧ – وتحت تأثير الحصار النفطي الذي فرضته الولايات المتحدة ولم تخرقه سوى شركة توتال الفرنسية– إلى تعديل مجمل البرامج النووية لأسباب اقتصادية؛ إذ لم تتمكن إيران من تخطي إنتاج الأربعة ملايين برميل في اليوم إلا بعد عشر سنين.

ولابد أن المسئولين في طهران اعتقدوا إمكان تزويد إيران بالأسلحة النووية، بالرغم من أنهم يؤكدون أنهم لم يبنوا بعد هذه الأسلحة، وترتكز الاتهامات الأمريكية في هذا الخصوص على مجموعة واسعة من المعلومات والفرضيات التي جمعتها الوكالة الدولية للطاقة الذرية، في تقريرها الصادر في السادس من شهر يونيو ٢٠٠٣، بالرغم من أن الوكالة –ومع انتقادها السلطات الإيرانية لأنها تسترت على جزء من نشاطها– لم تشأ الإعلان تحت ضغوط أمريكية أن إيران خرقت معاهدة عدم الانتشار النووي، لكن تفاصيل إضافية من مصادر متعددة تؤكد توجه إيران نحو وضع برنامج لإنتاج الأسلحة النووية للاستخدام العسكري.

لكن ماذا يعني –على صعيد العلاقات الدولية– بروز القوة النووية العسكرية الإيرانية؟ إن إيران ليست محاطة فقط بالدول النووية؛ بل إن المسئولين في طهران يعتبرون أن احتلال العراق يهدف إلى تطويق إيران من الولايات المتحدة؛ التي تملك اليوم تجهيزات عسكرية في جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق في آسيا الوسطى، وفي أفغانستان، والخليج، والعراق، والقوقاز. ويسترجع هؤلاء تجربة الحرب العراقية/الإيرانية التي استخدم فيها الجيش العراقي أسلحة

كيماوية لإرغام القيادة الإيرانية على اللجوء لأعداد كبيرة من جنود المشاة من أجل المقاومة، أو لإطلاق هجمات مضادة عالية التكلفة على صعيد الخسائر البشرية.

ومازالت الذكرى ماثلة بقوة في أذهان هؤلاء المسئولين الذين يحاولون بأي ثمن تفادي تكرار مماثل؛ ذلك أن خطر النزاع المسلح لم يزل بعد؛ فاحتلال العراق، والأزمات التي يمكن أن تنتج عنه؛ قد تؤثر مباشرة على إيران، هذا إضافة إلى اقتناع طهران بأن حكومة شارون لن تتردد أبدًا -في حال سمحت لها الظروف- في الإقدام على تدمير المنشئات النووية الإيرانية، كما أقدمت حكومة مناحيم بيجين على تدمير المفاعل النووي العراقي عام ١٩٨١.

وتتضارب وجهات النظر حول إمكانية امتلاك إيران للأسلحة النووية؛ فبالرغم من الادعاءات الإسرائيلية بإمكانية حدوث هذا في عام ٢٠٠٣ أو ٢٠٠٧، إلا أن بعض المصادر تقول إن إيران قد تتمكن من امتلاك هذه الأسلحة بأسرع مما يتوقع، ومع ذلك فقد مضى العام ٢٠٠٣، ولم تكشف إيران أو أي جهة أخرى امتلاك طهران لهذه الأسلحة.

وفي ضوء هذا التضارب قد يكون من الصعب -إن لم يكن من المستحيل- تحديد تاريخ دقيق لامتلاك طهران للأسلحة النووية. وحتى لو أثمرت المساعدات الفنية الروسية؛ فإن المراقبين -بمن فيهم كبار الخبراء من الولايات المتحدة- يقفون عاجزين أمام فك أسرار البرنامج النووي الإيراني، بالرغم من التصريحات التي أدلى بها محمد البرادعي مؤخرًا حول انتهاك إيران لمعاهدة الحد من الأسلحة النووية.

وبرغم ذلك تتواصل الحملة السياسية الأمريكية على إيران؛ وهي تحمل بين ثناياها أزمة طاحنة بين الجانبين، ولكن تلك الأزمة التي تخفي وراءها تاريخًا ساخنًا بين الطرفين -بدأ مع بداية الثورة الخمينية واحتجاز الرهائن الأمريكيين، وما أعقب ذلك من تجاذب بين الدولتين- تمثلّ في العديد من القضايا الإقليمية والدولية؛ مثل الموقف الإيراني من الصراع العربي/الإسرائيلي، ورفضها لمفاوضات السلام، والعامل الأيديولوجي الثوري الإيراني، ونظرة إيران لواشنطن على أنها قوة الاستكبار، إضافة إلى ما يشاع عن دعم طهران للمنظمات الفلسطينية مثل حماس، وادعاء واشنطن بإخفاء طهران عناصر من تنظيم القاعدة، والرغبة الأمريكية في السيطرة على مقدرات المنطقة بما فيها النفط الإيراني. وهذه الأزمة سوف لن تسدل فصولها إلا بتوصل الطرفين لحل ما؛ إلا أن بعض الباحثين يرون أنه لا توجد وسيلة لحسم هذا الجدال بصورة نهائية؛ إذ إن إيران كدولة محورية في هذا الإقليم الملتهب تمتلك من الإمكانيات ما يجعلها قادرة على التحول لقوة عظمى.

ولاستباق هذا التحول؛ صرح رئيس جهاز الموساد الإسرائيلي مؤخرًا أن إيران تشكل تهديدًا مباشرًا لإسرائيل؛ من خلال سعيها للحصول على الأسلحة النووية، كما أكد قائد القوات الإسرائيلية أن هناك تحركًا دبلوماسيًا دوليًا للتعامل مع هذا التهديد؛ فإذا نجح كان أمرًا جيدًا، وإذا فشل فإن "إسرائيل" ستضطر إلى اللجوء لخيارات أخرى؛ وهذه الخيارات لا تعدو أن تكون ضرب المفاعلات النووية الإيرانية، وعمل إسرائيل وأمريكا على تغيير النظام؛ والذي يحقق مجموعة من الأهداف المعلنة وغير المعلنة؛ مثل القضاء على تأثير الثورة الإيرانية في المنطقة، وإحكام السياج الأمني الأمريكي في المنطقة؛ ليقف على حدود روسيا والصين، وإحكام القبضة على النفط الإيراني؛ مما يؤدي إلى التحكم في منظمة أوبك والطاقة في العالم[١٨].

وكعملية مواءمة قامت إيران بالرضوخ للضغوط الأمريكية، ووقعت على البروتوكول الإضافي الذي أبدت فيه لفترة قدرًا من الممانعة؛ لكن موازين القوى على الأرض حالت في النهاية دون استمرار إيران في الممانعة؛ لكي لا تترك فرصة للعدوان الأمريكي عليها.

وجاء زلزال مدينة "**بم**" الإيرانية ليدشن ما عرف بدبلوماسية الزلازل؛ حيث أمر الرئيس الأمريكي جورج بوش (يوم الأربعاء ٣١-١٢-٢٠٠٣) بتخفيف بعض العقوبات التي تفرضها بلاده على إيران؛ لتسريع تدفق معونات الإغاثة الإنسانية إلى منكوبي الزلزال الذي دمر مدينة بم الأثرية

جنوب شرق إيران (الجمعة ٢٦-١٢-٢٠٠٣)، في خطوة جديدة نحو تحسن العلاقات التي انقطعت بين واشنطن وطهران منذ ربع قرن تقريبًا.

وجاء قرار تخفيف العقوبات الأمريكي في إطار مرسوم لوزارتي الخارجية والخزانة، ورد فيه أنه: **"اعتبارًا من ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٣؛ يسمح للمواطنين الأمريكيين على مدى تسعين يومًا بالقيام بتبرعات إلى منظمات غير حكومية؛ في دعم مباشر للجهود الإنسانية، وجهود إعادة البناء التي تبذل في إيران إثر الزلزال في بم"**. ويسمح المرسوم لموظفي المنظمات الإنسانية الأمريكية غير الحكومية بالتوجه إلى إيران بدون الحصول على إذن خاص[١٩].

ولعل ذلك ما حدا بصحيفة الإندبندنت البريطانية للقول إن الآثار المدمرة التي خلفها الزلزال المروع في إيران أصبحت سبيلاً لتحسين علاقات طهران بدول العالم، وسببًا لوقف خطط صقور الولايات المتحدة للإطاحة بالنظام الإيراني. وقالت الصحيفة (يوم الأحد ٢٨-١٢-٢٠٠٣): **"إن صور مدينة بم جنوب شرق إيران التي دمرها الزلزال (يوم الجمعة ٢٦-١٢-٢٠٠٣)، ودفن عشرات الآلاف من سكانها تحت ركام مبانيها؛ أثارت تعاطف كل الأمريكيين – حتى أكثر المعلقين قسوة ضد إيران– عندما رأوا تلك المشاهد على صدر الصفحات الأولى للصحف، وتابعوها عبر شاشات التليفزيون"**[٢٠].

إلا أن الرئيس محمد خاتمي قال: **"إن المشاكل الإيرانية/الأمريكية تضرب بجذورها في التاريخ، ولن تغير منها المعونة الأمريكية"**[٢١].

كما صرح رئيس المجلس الأعلى للأمن القومي حسن روحاني أن **"مفتاح المشكلات"** بين الولايات المتحدة وإيران هو بيد "الأمريكيين". وقال إنه حتى ولو "كان بإمكان علامات التضامن والتعزية" -كالتي عبر عنها الأمريكيون في أعقاب الزلزال الذي ضرب مدينة بم- تعديل مجرى التاريخ في العلاقات بين دولتين؛ فإن المشكلات السياسية بين إيران والولايات المتحدة معقدة، ونعتقد أن مفتاح المشكلات بيد الحكومة الأمريكية[٢٢].

خاتمة: مستقبل الصراع الأمريكي/الإسلامي

في آخر مقال للدكتور إدوارد سعيد بعنوان **"متى نقاوم"**؛ والذي نشر في الجارديان اللندنية في ٢٥ يناير ٢٠٠٣ قبل الحرب على العراق؛ قال فيه: **"الحرب على الإرهاب وتغيير النظام في العراق؛ إنما هي بداية لمشروع شامل وأعمق, هدفه خارطة سياسية جديدة، وأيديولوجية جديدة، بعد إدخال الإسلام إلى غرفة عمليات التجميل؛ لإخراجه بثوب علماني عولمي لا أصولي، يجاري ويتجاوب، ويغير ثوبه طبقًا لمستلزمات السوق الحر، والعرض والطلب"**.

وفي هذه المقال يؤكد إدوارد سعيد أن ما يجري هو صراع حضارات فُرض من طرف واحد، وليس دعوة من شعوب المنطقة لأمريكا لإنقاذهم من الأنظمة الديكتاتورية الفاسدة. ولكن لماذا الحرب الآن؟ فالديكتاتورية, والتطرف, والأصولية موجودة منذ زمن طويل!

وهنا لا يحاول إدوارد أن يجد الأعذار لتلك الأنظمة؛ بل إنه يعتبرها جزءًا من مشكلة أكبر؛ وهي فشل وتراجع النظام العربي على جميع المستويات؛ السياسية, والاقتصادية, والاجتماعية. ولكن هذا لا يعني أن تُعلن الحرب على أنظمة سياسية كان لأمريكا الحظ الأكبر في تكوينها وبقائها؛ فالحديث عن التغيير السياسي, والتعددية، وتحرير الاقتصاد، وكل الشعارات التي تروجها آلة الإعلام الأمريكي؛ إنما هو كلام حق يراد به باطل.

والحرب سببها أن النظام الرأسمالي-الذي يروج له بوش ،وجرين سبان، مرورًا بفوكوياما وهنتنجتون؛ أصحاب نظرية صراع الحضارات- في حالة اضطراب وعدم توازن، ويعاني من مشاكل جوهرية تهدد بانهياره, بل إن الانهيار حتمية لا رد لها؛ فارتفاع معدلات الفقر والبطالة, والأرقام الهائلة في إعلان الإفلاس على المستويين الفردي والشركاتي, وتراجع السوق المالي, والفساد المتفشي في المؤسسات الكبرى التي تشكل أعمدة الاقتصاد الأمريكي، زيادة على ذلك الهاجس الأمني, وتحديد الحريات، وارتفاع متوسط الأعمار، وإفلاس نظام الضمان الاجتماعي والتأمين الصحي, والمحاكم العسكرية, وعودة المكارثييزم بثوب وحلة جديدة, وسرعة

تغيير القوانين, وتحول الولايات المتحدة تدريجيًا إلى نظام بوليسي مخابراتي يشكل فيه الأمن الأولوية الأكثر حظًا؛ فمن أجل إنقاذ هذا النظام ستعلن الحرب؛ لأنه لا يملك حجة ولا قوة غير إعلان النصر، والهيمنة عن طريق آخر ورقة في جعبته؛ ألا وهي القوة العسكرية، والتلويح بالدمار، وستكون الحرب على طريقة المصارعة الرومانية[٢٣].

ومنذ فترة طويلة والمخططون الاستراتيجيون في الولايات المتحدة يعكفون على دراسات وأبحاث جوهرها؛ كيف يكون القرن الحادي والعشرين قرنًا أمريكيًا خالصًا، خاليًا من المنافسين والمهددين الفعليين والمحتملين؟ لكن من يقرأ تاريخ البشرية لابد أن يدرك معنى "**التداول**" الذي جرت عليه سُنن هذا الكون ونواميسه. وأي حكمة أبلغ من تلك التي دشنها الفاروق كقاعدة لاستقرار الأمم واستمرارها؛ حين ربط العدالة بالأمن والطمأنينة، وبمراعاة حقوق البشر، لا بما تضمنه القوة من وهم استقرار، أو بما يفعله العسكر من غزو وقمع واجتياح.

الهوامش:

(١) يحيى أبو زكريا، مخطط أمريكي لـ (إعادة تأهيل) العالم الإسلامي، http://www.almoharer.net/moh142/abu_zakarya142.htm

(٢) هشام فؤاد، نصف قرن من التدخلات الأمريكية.

http://216.239.37.104/search?q=cache:2zUSwLX9Ed0J:www.alresala.at/foryou

(3)http://216.239.37.104/search?q=cache:2zUSwLX9Ed0J:www.alresala.at/foryou15

(٤) انظر: عمرو عبد الكريم، العمل الخيري والإغاثي الإسلامي: استحكام سياسة تجفيف المنابع، تقرير: أمتي في العالم، حولية قضايا العالم الإسلامي ١٤٢٣- ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠١- ٢٠٠٢، القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، ٢٠٠٣ ص ص ٧٢١- ٧٣٨.

(٥) الشيخ مصطفى ملص، المكائد الأمريكية ضد المسلمين...، مسلسل مستمر، الوحدة الإسلامية، تصدر عن تجمع العلماء المسلمين في لبنان، السنة الثانية- العدد العشرون- جمادى الأولى1424 هـ- تموز (يوليو) ٢٠٠٣م.

(٦)جريدة الرياض الإليكترونية، عرض رضا هلال لندوة عقدتها مؤسسة "بروكنجز" في ٥ سبتمبر الحالي، تحت عنوان "١١سبتمبر بعد عام" الأحد ٢٢ سبتمبر ٢٠٠٢، العدد ١٢٥١١.

(٧) من أهم الكتابات التي درست هذه العقيدة كتاب:
Ivo H. Daalder. James M. Lindsay, America Unbound: The Bush Revolution in Foreign Policy, Washington D.C: The Brookings Institution. (November 2003)

(٨) انظر دراسة الطاهر الأسود، نشأة وتطور استراتيجية " الحرب الاستباقية (Preemptive War) " وفيها يثبت أن أحداث ١١ سبتمبر لم تقم إلا بتعجيل تبني الإدارة الأمريكية للاستراتيجية الجديدة؛ فقد توغل المؤمنون بها قبل ذلك بسنوات في دوائر القرار الأمريكي بدرجة كافية لجعلها عقيدة رسمية، انظر:
http://www.alfikralarabi.com/modules.php?name=News&file=article&sid=934

(٩) حول الحرب الدائرة بين إيران والولايات المتحدة انظر: أ.د. محمد السعيد عبد المؤمن، الحرب الباردة بين إيران والولايات المتحدة ٢٠٠٣/٠٦/١٧.

(١٠) عصام عبد العزيز، زواج المتعة بين أمريكا وإيران.
http://216.239.37.104/search?q=cache:6G_FZqfHPKsJ:www.almokhtsar.com/html
انظر أيضًا حول مظاهرات الطلبة في إيران: محمد جمال عرفة لعبة "المظاهرات والوكالة النووية" بين واشنطن وطهران! إسلام أون لاين.نت ٢٠٠٣/٠٦/١٧.

(١١) مخطط أمريكي جديد ضد إيران، طهران – جهاد العيدان – إسلام أون لاين.نت/٢٨-٢-٢٠٠١.

(١٢) فيما يخص العلاقات الإيرانية الروسية انظر: د. نورهان الشيخ، إيران وروسيا.. محور استراتيجي ضد الغطرسة الأمريكية، إسلام أون لاين. نت ٢٠٠١/٠٦/٧.

(١٣) رغم ذلك فإن الدبلوماسية الإيرانية نجحت في اختراق السياسة الأمريكية هذه؛ إذ تمكنت من تحسين العلاقات الإيرانية العربية، وإقامة علاقات اقتصادية وسياسية جيدة مع البلدان الأوربية، وأصبح الحلفاء الأوربيون يسعون إلى تطبيع العلاقات مع طهران، ويرفضون سياسة العقوبات التي تفرضها الولايات المتحدة ضد إيران. وحققت سياستها الخارجية نجاحًا على صعيد العلاقات مع روسيا؛ التي أصبحت الحليف الاستراتيجي لطهران والصين، ودول العالم النامي؛ بهدف تجاوز الحظر العسكري.

(١٤) شهدت الإدارة الأمريكية في عهد الرئيس بيل كلينتون تحسنًا في العلاقات تجاه إيران؛ حيث أبدت نوعًا من المرونة؛ وذلك عندما أعلنت وزيرة خارجيتها مادلين أولبرايت عن أخطاء ارتكبتها الولايات المتحدة الأمريكية بحق إيران، وخاصة في دعمها اللامحدود للشاه المخلوع، ومشاركتها في الانقلاب الذي أدى إلى إقصاء الزعيم الوطني الراحل محمد مصدق من رئاسة الوزراء في أوائل الخمسينيات.

(١٥) انظر دراسة الطاهر الأسود، نشأة وتطور استراتيجية "الحرب الاستباقية (Preemptive War) " وفيها يثبت أن أحداث ١١ سبتمبر لم تقم إلا بتعجيل تبني الإدارة الأمريكية للاستراتيجية الجديدة؛ فقد توغل المؤمنون بها قبل ذلك بسنوات في دوائر القرار الأمريكي بدرجة كافية لجعلها عقيدة رسمية، انظر:
http://www.alfikralarabi.com/modules.php?name=News&file=article&sid=934

(١٦) محمد عبد الله محمد، بعد إقرار وثيقة الأمن القومي الأمريكي، الاستراتيجية الأمريكية تجاه إيران، صحيفة الوسط البحرينية في يوم الخميس الموافق ٢٧ نوفمبر ٢٠٠٣ – العدد ٤٤٧.

(١٧)خالد حسن، أمريكا وإيران: تحالف غير محتمل.
http://www.almokhtsar.com/html/news/1424/07/08/2/10203.php

(١٨) كوريا الشمالية وإيران تتحديان القطب الأوحد، جريدة البيان، الملف السياسي، الجمعة ٢٥ شوال ١٤٢٤هـ - ١٩ ديسمبر ٢٠٠٣- العدد ٦٥٧.

(١٩) تخفيف جزئي للعقوبات الأمريكية على إيران، إسلام أون لاين.نت/ ١-١-٢٠٠٤.

(٢٠) الزلزال يحسن علاقات إيران بالعالم، إسلام أون لاين.نت/ ٢٨-١٢-٢٠٠٣.

(٢١) الزلزال يصهر الجليد في العلاقات الإيرانية الأمريكية، القدس العربي ٣- ١-٢٠٠٤.

(٢٢) الوطن, الثلاثاء ١٤ ذو القعدة ١٤٢٤هـ الموافق ٦ يناير ٢٠٠٤م, العدد (١١٩٤), السنة الرابعة.
http://216.239.37.104/search?q=cache:4z3Yl_kmbCEJ:www.alwatan.com.sa/daily/2004-01-06/politics

(23) http://www.almaraya.net/print.php.